ورجاءنا أن يعود إلى هذا الجبل سكانه المهاجرون أو سوادهم الأعظم على الأقل وقد تهذبت عقولهم التهذيب الغربي في الجملة فيعمرون رباعه وبقاعه على نحو ما عمر اللبنانيون بلادهم ويبذروا فيها من المال في الطرق المحمودة ما يعود عليهم وعلى جبالهم وأوديتهم المخصبة الصافية بالرفاهية والراحة يعمروها كما يعمر الصهيونيون القرى التي نزلوها من أرض فلسطين والجليل فقد مر بنا مكارينا بقرية المطلة في أقصى حدود الحولة وهي لجماعة من الإسرائيليين فرأيناهم بتنظيمها كقرى أوربا فهلا رأى السكان مجاوريهم وقلدوهم في مرافق الحياة والشؤون النافعة.

صيدا وصور

ما الروض إلا ريض باكره السحاب ولا نسيم الصبا عطر بالشيح والملاب ولا مجامع الأنس ولقاء الأصحاب ولا العافية في بدن ذي أسقام وأوصاب ولا النضارة في خدود الغنيات الكعاب ولا تغريد العندليب وأنين العود والرباب ولا نيل الأماني بعد طول التطلاب ولا رنات الأوتار تلين لها الصم الصلاب ولا كشف غوامض المسائل بعد أن خفيت عن طالبيها الأحقاب – ما كل بهذا بأجمل من نزول صيدا في نيسانها وأيارها وقد طرزت ضواحيها وحواشيها وترنحت بالمرقصات المطربات أعطاف شاديها وتغنت أطيارها في أشجارها وتفتقت أنوارها وفاح أريج تربتها الزكية وتسلسلت سواقيها النقية فضمخت الأرجاء بماء أزاهيرها وورودها فكانت بهجة النفوس وريحانة الرواح.

أتيتها من طريق صور وكنت قصدت هذه من النبطية قاعدة جبل عامل والمسافة بين النبطية أو النابطية وصور سبع ساعات عن طريق صعب في الجملة وليس في صور ما يستحق أن يذكر سوى تاريخها القديم أما حالتها الحاضرة فأشبه بقرية وسط جزيرة تتصل مع البر برمال وهي محصورة ضيقة وبلغني أن نفوسها لا يتجاوزون سبعة آلاف نصفهم

من المسيحيين والنصف الآخر مسلمون وتجارها ضعيفة جداً وزراعتها متوسطة وقد ذكر القدماء بأن صور هي التي أوجدت فن الزراعة وغرس الكرمة.

كان لصور شأن في القديم دونه اليوم ميناء همبورغ ومرسيليا ولندن ونيويورك ومن مينائها وميناء صيدا سافرت سفن الفينيقيين واستعمرت شواطئ البحر الرومي حتى بلغت مضيق جبل طارق بل تجاوزته في بحر الظلمات إلى أن بلغت الجزائر البريطانية واستعمرتها وأقامت فيها مصانعها ومتاجرها على حين لا ترى اليوم إلا قوارب حقيرة ومراكب شراعية صغيرة لا تدل على عظمة ولا تشعر إلا بفقر ومسكنة.

أصحيح أن صور التي لا تصدر الآن إلا قليلاً من القطن والدخان كانت فيما مضى تصدر

إلى باب العالم المدني السكر والخرز والزجاج المخروط والمعمولات وعسل جبل عاملة وأرجوان صيدا.

أصحيح أن هذه القرية الحقيرة الضيقة النطاق الكئيبة الدور والمنازل والحوانيت كانت ذات طبقات ست وسبع وثمان ويجلب الفينيقيون الماء في قوارب لتفاههم وهي مركز حكومة فينيقية التي كان طولها خمسين فرسخاً وعرضها نحو عشرة فراسخ يقصدها أصحاب النواحي المستقلين الذين يحكمون أنفسهم لفض المصالح المشتركة فكانت منذ القرن الثالث عشر أهم مدن فينيقية ضاقت على أهلها فأُقيمت مدينة جديدة قبالتها وأسس تجارها مستعمرات في البحر الرومي كله لأن زراعتها لك تكفهم. أسسوها ليصيبوا الفضة من مناجم أسبانيا وسلع العالم القديم وكم أسسوا مثل قرطاجة مدناً لا تزال أنقاضها شاهدة بعزها الداثر ولذلك كان تاريخ صور وصيدا عبارة عن تاريخ العالم القديم.

أصحيح أن عكا وصور وهما الآن فرضتان حقيرتان جداً من موانئ الشام كان لهما من المكانة في القديم ما لم تحز بيروت بعضه اليوم مهما بلغ من مجدها البحري وأن صور كانت هي وعكا ميناء دمشق وسائر المدن الداخلية منهما تصدر التجارات وترد الواردات وهما مقصد السياح من الشرق إلى الغرب وبالعكس.

قال ياقوت: إن صور مشرفة على بحر الشام داخلة في البحر مثل الكف على الساعد محيط بها البحر من جميع جوانبها إلا الربع الذي منه شروع بابها وهي حصينة جداً ركينة لا سبيل إلا بالخذلان وهي معدودة في الإسلام من أعمال الأردن بينها وبين عكة ستة فراسخ وهي شرقي عكة. وذكرها شيخ الربوة من جملة العجائب فقال: إن البحر الرومي منها رمية نشاب وهي مربعة البناء من خارج وهي مثمنة من الداخل وعمق الماء إلى أسفل ثلاثة وأربعون ذراعاً بالكبير ويخرج منها ماء كثير وجريته فرسخين يجري إلى المعشوقة يسقي أنصاباً ومزروعات وروى ابن فضل الله: إن صور كانت ولاية في القرن الثامن وفيها كنيسة يقصدها ملوك من البحر فلهذا لا يزال عليها الرقبة وهم على هذا يأتونها مباغتة ثم يفضون فيها ما أرادوا ثم ينصرفون ولعل تلك الكنيسة هي كنيسة اللاتين التي يقال أنها من بناء الملك قسطنطين وقال البكري إن السفن كانت تسلك من الاسكندرية إلى أبي قير فدمياط فبحيرة تنيس ثم إلى جزيرة دبقوا وهي التي تصنع فيها الثياب الديبقية ثم إلى تيدار ميماس (؟) ومنها إلى غزة فملحة الواردية فعسقلان فقيسارية فرأس الكرمان (لعله رأس الكرمل) فحيفا فعكا فصور وهي داخل البحر وهي ساحل بيت المقدس ثم إلى صيدا ثم إلى بيروت ثم إلى طرابلس الخ. وأنت ترى اليوم أن من بين هذه الموانئ السورية ما لا تقف عليه المراكب مثل عسقلان وقيسارية وصور وصيدا فسبحان محول الممالك قرى وجاعل المجاهل معالم.

وقال الشريف الإدريسي: بأن صور كانت مرسى يدخل إليه من تحت القنطرة وعليه سلسلة تمنع الراكب من الدخول قال ابن سعيد: صور التي لا يرام لحصار من جهة البر وقد حفر الإفرنج حولها أداروا بها البحر قال العزيزي وبين صور وعكا اثنا عشر ميلاً وفتحت في سنة تسعين وستمائة مع عكا وخربت وقد نقل معاوية إليها وإلى عكا قوماً من فرس بعلبك وحمص وأنطاكية سنة ٤٢ وكانت خراباً يوم مر بها ابن بطوطة سنة ٧٢٦ وبخارجها قرية معمورة سكانها من الستوزة؟ قال أن بابها الذي للبحر بين برجين عظيمين وبناؤها ليس في الدنيا أعجب وأغرب شأناً منه كما مر بها ابن جبير قادماً من عكا في طريقه على حصن كبير يعرف بالزاب لزيب وهي مطلة على قرى وعمائر متصلة وعلى قرية مسورة تعرف بإسكندرية وقال في وصف صور:

مدينة يضرب بها المثل في الحصانة لا تلقي لطالبها بيد طاعة ولا استكانة قد أعدها الإفرنج مفزعاً لحادثة زمانهم وجعلوها مثابة لأمانيهم هي أنظف من عكا سككاً وشوارع وأهلها ألين في الكفر طبائع وأجرى إلى بر غرباء المسلمين شمائل ومنازع فخلائقهم أسجع ومنازلهم أوسع وفسح وأحوال المسلمين بها أهون وأسكن وعكة أكبر وأطغى. وأما حصانتها ومنعتها فأعجب ما يحدث به وذلك أنها راجعة إلى بابين أحداهما في البر والآخر في البحر وهو يحيط بها الآن من جهة واحدة فالذي في البر يفضى إليه بعد ولوج ثلاثة أبواب أو أربعة كلها في ستائر مشيدة محيطة بالباب وأما الذي في البحر فهو مدخل بين برجين مشيدين إلى ميناء ليس في البلاد البحرية أعجب وضعاً منها يحيط بها سور المدينة من ثلاثة جوانب ويحدق بها من الجانب الآخر جداً معقود بالجص فالسفن تدخل تحت السور وترسى فيه وتعترض بين البرجين المذكورين سلسلة عظيمة تمنع عند اعتراضها الداخل والخارج فلا مجال للمراكب إلا عند إزالتها وعلى ذلك الباب حراس

وأمناء لا يدخل الدخل ولا يخرج الخارج إلا على أعينهم فشأن هذه الميناء شأن عجيب في حسن الوضع ولعكة مثلها في الوضع لكنها لا تحمل السفن الكبار حمل تلك وإنما ترسي خارجها والمراكب الصغار تدخل إليها فالصورية أكمل وأجمل وأحفل قال وهاتان المدينتان عكة وصور لا بساتين حولهما وإنما هما في بسيط من الأرض افيح متصل بسيف البحر والفواكه تجلب إليهما من بساتينهما التي بالقرب منهما ولهما عمالة متسعة والجبال التي تقرب منهما معمورة بالضياع ومنها تجبى الثمرات إليهما وهما من غر البلاد.

وقال ابن خرداذبة: وسواحل جند دمشق عرقة طرابلس وجبيل وبيروت وصيدا وحصن الصرفند وعدلون وسواحل جند الأردن صور وعكا وبصور صناعة المراكب أي المسنحة (الترسانة) وفي نزهة المشتاق: ومن إسكندرية إلى مدينة صور خمسة عشر ميلاً وهي مدينة حسنة على ضفة البحر ومن صور إلى طبرية يومان كبيران ومنها إلى عدلون وهو حصن منيع على البحر ومنه إلى صيدا عشرة أميال وبين صور وصرفند يقع نهر ليطة ليطاني ومنبعه من الجبال ويقع هناك في البحر ومن صور إلى دمشق أربعة أيام وذكر ياقوت في المشترك أن صور أشهر مدينة بساحل الشام وحصنها وأحسنها افتتحت في أيام عمر بن الخطاب وبقيت في أيدي المسلمين إلى سنة ٥١٨ في أيام الآمر بالله فأخذها الفرنج.

هذا كلام الإفرنج والعرب في صور وقد بتنا فيها ليلة انقبضت فيها النفس انقباضاً لم يعرض لها في أحقر القرى التي مررنا بها في رحلتنا ومن الغد ركبنا المركبة إلى صيدا في أراض مزروعة وجداول منسابه والمسافة أربع ساعات وليس في الطريق من أثر إلا بقايا أنقاض الصرفند وتعرف قديماً باسم الزاربات وعدلون ومغارة اسمها مغارة البزاز يرشح الماء من أعلى صخر منها المتجمع من مياه المطر فيشرب منه الرعاة حيث يلجأون في الشتاء ويعتقد بعض العامة أن كل مرضع جف لبنها وانقطعت درتها تستشفي يرشح من

قطرات الماء فيدر لبنها ولم يقم دليل على ذلك في الحس كما لم يقم حتى الآن دليل على الاستشفاء بالأماكن المباركة وبعض المعابد ومحال النسك وما النذور التي ينذرها بعض عامة المسلمين من السنة والشيعة والرحال التي يشهدونها من القاصية إلا من باطل السعي ومخلفات القرون الوسطى لا يؤيدها نقل ولا يقول بها عقل.

وفي الطريق إلى صيدا بعض نواويس ومسلات منها ما هو يوناني ومنها ما هو فينيقي ومنها ما هو مصري كما تجد أحواضاً وقبوراً ومعاصر زيت وأنقاض معابد وغيرها والمهم مما كان هنا وفي صيدا نقله علماء الآثار إلى متحف الأستانة أو متاحف أوربا سراً. ومدخل صيدا بحدائقها الأنيقة مدخل المدن الكبرى وإن لم يتجاوز نفوسها عشر ألفاً ولذا رجح بعضهم أن الفينيقيين اختاروها لجمال جزين والريحان وعامل مطلة عليها إطلال الأب على ابنه أو العاشق على معشوقه.

وكيف لا يبهج الأباصر رؤيتها ... وكل روضٍ بها في الوشي صنعاء
أنهارها فضة والمسك تربتها ... والخز روضتها والدر حصباء
وللهواء بها لطف يرق به ... من لا يرق وتبدو منه أهواء
ليس النسيم الذي يهفو بها سحراً ... ولا انتشار لآلي الطل أنداء
وإنما أرج الند استسار بها ... في ماء ورد فطابت منه أرجاء

اختلف المؤرخون في صور وصيدا وأيهما كانت أكبر وأفخم على عهد الفينيقيين ويقول استرابون أن صور أقدم مدن فينيقية وأعظمها بعد صيدا وقد جعل صور العتيقة على مسافة نحو خمسة كيلو مترات ونصف من صور الحديثة أما بلين فيقول أن المدينة القديمة والحديثة متصلتان ببرزخ إحداهما مع الأخرى ومحيطهما ٢٧ كيلومتراً أما المدينة الأصلية فمساحتها زهاء أربعة كيلومترات.

ظفر الباحثون بنقود فيها رسم أنطوخيوس الرابع قبل المسيح بمائة وثماني وستين أو سبع وستين سنة كتب عليها أنها ضربت في صور أم الصيدونيين ووجدت أيقونة أخرى كأنها رد على هذه الدعوى مكتوب عليها الصيدونيين مذلولون صور الكاذبة وهكذا تنازعت صور وصيدا شرف التقدم كما تنازعتا مدينة صرفند (صرفت) التي بناها أهل صيدا على ١٥ كيلو متراً ونصف جنوبي صيدون على الشاطئ ومعناها سبك المعادن من صرف العبراني أي ذوب.

بيد أن التاريخ ناطق بأن صيدا وإن سبقت الفينيقيين بتأسيس المستعمرات منذ عهد عريق في القدم فأنشأت هيبون في نوميديا وقرطاجنة في شمال أفريقية فقد سبقتها صور فيما بعد وتبين أن صيدا كانت من عمل صور حتى كانت صيدا تعرف باسم صور صيدا وظلت صيدا مستقلة في شؤونها الداخلية وكان لها حق على عهد الرومان مجلس شيوخ وحاكم أكبر كالذي كانت تنصبه الجمهوريات اليونانية. ولم يشتهر الصيدونيون بأنهم والصوريين أساتذة العالم في تجشم البحار بل اشتهروا أيضاً بأنهم أساتذة أيضاً في علم النجوم والرياضيات.

خربت صيدا سنة ٣٥١ ق. م عقب انتفاضها على ملك فارس وقتل وحرق فيها ٤٠ ألفاً وفتحت أبوابها بنفسها للفاتحين اليونانيين ثم استولى عليها الرومان وكان يطلق عليها اسم قاعدة المراكب وأم القرى والمستعمرة السامية وافتتح المسلمون صيدا سنة ٦٣٧ و ٣٨ م

بدون مقاومة وقامت على عهد الصليبيين أهوالاً ودفعت مالاً سنة ١١٠٧ حتى رفع الصليبيون عنها الحصار إلا أن بودوين الأول عاد فاستولى عليها سنة ١١١١ وبعد وقعة حطين دك السلطان صلاح الدين أسوارها سنة ١١٨٧ م ثم عاد الصليبيون فاستولوا

عليها سنة ١١٩٧ واستخلصها منهم الملك العادل وخربها في تلك السنة فأعاد الإفرنج بناءها سنة ١٢٢٨ فخربها المسلمون سنة ١٢٤٩ ثم حصنها سان لوي سنة ١٢٥٣ وابتاعها فرسان الهيكليين الصليبيون وهاجمها المغول سنة ١٢٦٠ فجعلوا عاليها سافلها ثم وقعت في أيدي المسلمين ودك الملك الأشرف حصونها.

ولم تنهض صيدا من كبوتها إلا في القرن السابع عشر على عهد الأمير فخر الدين المعني أحد أمراء الدروز الذي جعلها مقر ولايته ونشط الأوربيين على نزولها حتى أزهرت تجارتها وأقام فيها قصراً له وخانات للتجارة وكان بعضهم من أهل طوسكانيا في إيطاليا وبعضهم من الفرنسيين وجلب تجارة الحرير إليها ثروة هائلة وظلت المدينة متقدمة في تجارتها إلى أواخر القرن الثامن عشر وامتدت ايالة صيدا سنة ١٨٣٨ فتألفت من بلاد ساحل عتليت وعكا وشفا عمرو والجبل والشاغور وبلاد بشارة وطبرية وصفد والناصرة وتوابعها من القرى والعرب المخيمين في ضواحيها وقد ضربت أساطيل الأوربيين المتحدة سنة ١٨٤٠ قلعة الرفاء وما زالت أنقاضها بادية.

وكانت صيدا مرفأ دمشق الوحيد في القرن السابع عشر والثامن عشر كما كانت في القرون الوسطى وبين دمشق وصيدا ستة وستون ميلاً والميل ثلاثة آلاف ذراع أو ستة وتسعون ألف إصبع والفرسخ ثلاثة أميال وثلاثمائة ألف إصبع يقص اثني عشر ألف إصبع وكانت الطريق على رواية العزيزي من صيدا إلى مدينة مشغرا وهي أنزة بلد في تلك الناحية في واد في نهاية الحسن بالأشجار والأنهار والمسافة أربعة وعشرون ميلاً ومن مدينة مشغرا إلى مدينة تعرف بكامد (الغالب أنها كامد اللوز قرية في غربي البقاع) قاعدة تلك البلاد قديماً ستة أميال ومن مدينة كامد إلى ضيعة تعرف بعين الجر ثمانية عشر ميلاً ومن عين الجر إلى مدينة دمشق ثمانية عشر ميلاً.

ولا يعرف بالتحقيق الباني الأول لصور وصيدا والأرجح أن الأولى بنيت في أيام جلعاد من سبط منشأ بني عمون اليهود والثانية بناها صيدون بكر كنعان. وكانت مدينة صيدون

أي صيدا أول ما أحدثه كنعان علة بضعة مراحل من جنوبي بيروت ولم تكن إلا قرية للصيادين (كما يدل عليه اسمها نفسه) بناها على ما جاء في روايتهم القديمة الإله بعل (المعروف عند اليونان بسم آجنور) على المنحدر الشمالي لرأس صغير يشرف بانعطاف نحو الجنوب الغربي وقد كان لميناها عند السلف شهرة فائقة وهي محصورة بين صخور منخفضة متتابعة تبتدئ من النهاية الشمالية لشبه الجزيرة ثم تمتد بحذاء الساحل على مساحة بضع مئات من الأمتار والسهل المحيط بها يسقيه نهر جميل يعرف باسم بوسترين نهر الأولي وفيها كثير من البساتين الغناء الاريضة حتى أوجب هذا الموقع الطبيعي وهذا الجمال الخلقي تسميه المدينة بصيدون الزهراء وبحوارها شمالاً نهر الدامور وهي تمتد جنوباً إلى مصب نهر الليطاني وفيما وراء ذلك من البلاد كان في حكم الصوريين.

قالوا وفي الأحقاب الخوالي التي مضت على العالم أي أيام كان الآلهة يعيشون بين الناس اختط سمروم على القارة رسم مدينة من قصب الغاب وأمامها استقر أخوه هيزعوس في بضع جزار أقام فيها أعمدة مقدسة. وهيزعوس هذا أول بحري في العالم. وكان هذا مبدأ صور ثم جاءها بعد ذلك ملكارت وهو عند الصوريين مثل هرقل الجبار المشهور في جاهلية اليونانيين ويؤكد كهنة هذا الرب أن هيكله بني هو والمدينة في وقت واحد وقد مضى نحو ألفي سنة وثلثمائة سنة حينما زارهم المؤرخ هيرودتس فعلى حسابهم يمكننا أن نقول بأن مدينتهم هذه أسست في نحو سنة ٢٧٥٠ ق. م.

استكانت صور صيدا للفاتحين كما استكانت جبيل وبيروت من مدن الفينيقيين فتفرغت إلى عهد رعمسيس الثاني أحد ملوك الفراعنة لاحتكار جميع تجارة مصر مع أمم آسيا والبحر الأبيض المتوسط وفي القرن الثاني عشر ق. م حصلتا على استقلالهما لما ضعف أمر العائلة العشرين من الفراعنة وكان خلال ذلك العهد كل من صور وصيدا عبارة عن دولة صغرى تطمح إليها أنظار مجاوريها بسبب ما أحرزتاه من توفر أسباب الثروة ولكنهما قاومتا هذه الأطماع مدة بما كان لهما من الحصون والأسوار غير أنهما لم يتأت لهما البقاء زماناً على هذا الاستقلال فأقلع من عسقلون (عسقلان) أسطول فلسطيني سنة ١٢١٠ وتلاقى بعمارة الصيدونيين فدمرها تدميراً ثم استولى على مدينة صيدون ومن نجا من أهلها فروا إلى صور فقويت بهم حتى صارت أقوى دولة فينيقية وفي أيام حيرام الأول (٩٨٠ – ٩٤٥ ق. م) بلغت صور ببحريتها أعلى الدرجات وانبسط سلطانها.

كانت صور متفرقة في عدة جزائر يفصل بعضها عن بعض ألسنة من البحر ليست بالعميقة بل تتخللها صخور طافية رؤوسها على صفحات الماء من جنس الصخور التي يتعذر معها اقتراب السفن في بعض المواضع من سواحل الشام فردم حيرام تلك المضايق التي تتخللها مياه البحر بجسور حصينة وردوم أقامها فاتسعت رقعة المدينة ولكنها لم تكن لتسع سوى ثلاثين إلى خمسة وثلاثين ألفاً وأقام ملوكها وتجارها قصورهم في أواخر سفح لبنان وبقيت الجزيرة مركز الحكومة.

وظلت صور راضية بأداء الجزية للفاتحين حتى نشب القتال بين ملكها ايلولي ٧٦٨ – ٦٩٢ والملك تغلات فلازار الثالث صاحب آشور انتهت بهلاكه ووقوع صور في قبضة الآشوريين ولما سقطت نينوى عاد لصور استقلالها وفازت بدفع بخت نصر عنها بمعاونة الفراعنة الصاويين واحتملت الحصار ثلاث عشرة سنة من سنة ٥٧٤ إلى سنة ٥٨٧

ولكن نزفت قوتها بفتنتها الأهلية وفي سنة ٥٥٧ أعيدت إلى سيطرة الكلدانيين ولما سقطت بابل في سنة ٥٣٨ حصل لصور وفينيقية ما حصل لها فدخلت في قبضة الفرس من غير حرب ولا قتال.

كان لكل من صور وصيدا كما كان لكل مدن فينيقية رب خاص بها بعل وله عشتاروت اسطارطوس وهي آلهة أنثى وكانت البعليم والعشتاروت تمثل قول الطبيعة والشمس والكواكب أو الأغراض التي تتجه إليها نفوس بني آدم مثل العشق والقتال وكانت هذه الآلهة متوطنة في المرتفعات والمشارف وفي الغابات وفي المياه وفي الأحجار الخام بيت ايل – بيت الإله وكانت هذه الآلهة تؤول إلى زوج واحد أعلى أو إلى سبعة آلهة كبراء تحف باشمون الذي هو الإله الخالق وكانت عبادة هذه الآلهة غير منتظمة ومحفوفة بأساليب القسوة فكان القوم يحرقون الأطفال تمجيداً لها وإذا حل الانقلاب الصيفي أخذوا يندبون أدونيس ثم إذا جاء الخريف احتفلوا ببعثه ونشوره. ثم دخلت بعض القواعد الدينية المصرية في ديانة الفينيقيين.

أخذت فينيقية عن مصر حروف الهجاء ومن الحروف الهجائية الفينيقية اشتقت حروف الهجاء الأوربية. وأثرت في فنونهم من صياغة ونقش ونحت وعمارة وعمل زجاج وصناعات كلديا تارة أخرى واشتهرت صناعة الفينيقيين عند القدماء فقد أتقنوا طرق اصطناع الزجاج وحفظوا زماناً سير تحضير الأرجوان وفي الآثار التي عثر عليها في أمريت أي مارات القديمة ما يستدل به أن المدينة المصرية أثرت كل التأثير في المدينة الفينيقية بل أن معاصر الزيوت ذات الأجهزة الضخمة تشبه الآثار المصرية كل الشبه وكذلك أواني الفضة والشبهان البرونزالتي كانت تصنع في صور تراها مزخرفة بأشكال مصرية وممثلة لموضوعات مصرية وكذلك الجواهر والأساور والخناجر ودروع الخواصر والخواتم

والأقراط تشبه المصنوعات المصرية فلم يكن للفينيقيين قط فنون وطنية خاصة بهم متأصلة فيهم لأنهم اقتصروا في كل عصر على تقليد أعمال الأمم التي تحكمهم فكانوا يقلدون الصناعات المصرية والآشورية أيام كانت حكومة بلادهم في أيدي المصريين والآشوريين فلما حكمهم اليونان ثم الرومان حاكوا الصناعات اليونانية.

وبالجملة فإن صور وصيدا كانتا مدينتي صناعة وتجارة يحمل أبناؤهما مصنوعاتهم ومصنوعات غيرهم إلى الجهات القاصية وهم وحدهم كانوا ينقلون البضائع في البحر المتوسط مدة قرون طويلة.

هذا ما يساعد المقام على اقتباسه من تاريخ العاصمتين القديمتين أما حالتهما الحاضرة فمتأخرة وإن كانت صيدا ترجح على صور كثيراً خصوصاً بحدائقها الأنيقة التي يعود عليها منها دخل وافر لا سيما في البرتقال والليمون واللوز والمشمش والموز والبلح ويني دنيا وهو شجر حديث أدخل المالطيون زراعته إلى صيدا أولاً منذ نحو أربعين سنة وله طعم حلو مز وبذر كبير.

إن تلك البقعة التي تقدر بنصف غوطة دمشق بمساحتها في ذاك السهل النضير الذي تطل عليه قمم لبنان مغطاة بالثلوج وجبل الريحان وتومات نيحا وصيدا في عمرانها اليوم صورة مصغرة من عمران بيروت وفيها من المعاهد والمصانع مثل ما في الأولى فلها مدرسة صناعة لمبشري الأميركان ومدرستان لهم للذكور والإناث كما فيها مدرسة لليسوعيين وأخرى للفرنسيسكان وثالثة للاتحاد الإسرائيلي ومدارس ابتدائية لجمعية المقاصد الإسلامية لا تعلق لها بجمعية بيروت المسماة بهذا الاسم ولا بجمعية النبطية التي أطلق عليها مثل هذا الاسم أيضاً وفيها مكتب ابتدائي ورشدي أميري وغير ذلك من الجوامع

والكنائس كما أن فيها مزاراً يقال أن فيه شيئاً من جثة يحيى الحصور عليه السلام وهذا غير ثابت في التاريخ كما لم تثبت الدعاوي التي من قبيله.

وفي صيدا تصدر مجلة العرفان لمنشئها صديقنا أحمد عارف أفندي الزين وهي مجلة راقية خادمة للآداب العربية امتازت بما تنشره لعلماء جبل عامل والنجف وإيران وشعرائهم وكتابهم وما ترويه من آثار العلويين وتاريخهم ولها مطبعة متقنة وهي المطبعة الوحيدة في هذه البلاد وبالنظر لقرب المسافة بين صيدا وبيروت اكتفى الصيدونيون بجرائد بيروت ولم ينشروا جرائد لهم خاصة.

وقد فتحت صيدا شارعاً طويلاً لها أقامت فيه الدور والحوانيت على الطراز الجديد في الجملة أما بناء المدينة القديم فضيق معوج مثل أبنية بيروت وطرابلس القديمة أو أدهى وماؤها عذب يأتي في أنابيب مثل ماء بيروت ويستقى منه في أعالي البيوت وبلديتها تعتني بتنظيفها أكثر من عناية بلدية دمشق وبيروت.

وقصارى القول فإن صيدا كما قال أستاذنا الشيخ طاهر الجزائري تصيد القلوب صيدا وعلى رأي ابن الساعاتي وقد مر بها يوم كانت بيد الإفرنج فرأى مروجاً خضراء كثيرة نباتها النرجس واتفق أنه هرب بعض الأسارى من صيدا فأرسلت الخيل وراءه فردته فقال:

لله صيداء من بلد ... لم تبق عندي بلى دفينا
نرجسها حلية الفيافي ... قد طبق السهل والحزونا
وكيف ينجو بها هزيم ... وأرضها تنبت العيونا

مرج عيون

عدنا من صيدا إلى النبطية في مركبة وذهبنا من الغد في زمرة من الإخوان لزيارة قلعة الشقيف التي نسبت إليها البلاد المحيطة بها ويرد عهدها إلى قبل الصليبيين عرفها الإفرنج للمرة الأولى سنة ١١٧٩ ولما استولى عليها الصليبيون سموها الحصن الجميل وحق لهم أن يسموها كذلك لجمال موقعها المطل على نهر الليطاني المنسابة مياهه في أسفل الوادي العميق ومن الجانب الآخر بعض القرة المبثوثة في الخضرة التي تأخذ بمجامع القلوب ومن البعيد سهر مرج عيون الوارد ذكره في سفر الملوك وينتهي هذا المرج بجبل الشيخ وبجانبه قلعة الصبيبة المطلة على حولة بانياس وبلاد بشارة أو جبل عامل وفي الجنوب بلاد نفتالي الجبلية إلى ضواحي صفد وعلى اليمين جبل الجرمق.

ومن قلعة الشقيف أيضاً ترى قلعة هونين وفي الشمال الشرقي تصعد العين الوادي وفي أعلاه جبل الريحان منظر يملك على الإنسان مشاعره فيدهش له ويبتهج بنظر القلعة فيراها محلقة في الجو كالعقاب تدل كل الدلالة على قدرة الإنسان حتى في سالف الأحقاب ويقع نظره من جهة أخرى على أجمل مناظر سورية وتتمثل له هذه البلاد وما قاسته من مطامع الفاتحين وسيئات الظالمين المستبدين.

وفي هذه البقاع التي منحتها الفطرة أسباب الصفاء والرواء تطاحنت سنين كثيرة جيوش أهل الصليب وأهل الإسلام فأهلك الإنسان أخاه بسائق الدين في الظاهر وسائق المطامع الدنيوية في الحقيقة ولولا عزيمة من صلاح الدين يوسف بن أيوب نسفت الأهواء لتجردها عن الأهواء لكانت بلادنا اليوم ملكاً لدول أوربا أو لأحداهن ولما بقيت للإسلام والعرب كلمة تسمع في هذه الديار كما وقع لشبه جزيرة الأندلس وجزيرة صقلية من قبل.

وقلعة الشقيف كسائر قلاع القرون الوسطى في بلاد الشام من بناء كثير من الملوك والمتغلبين وأهم أبنيتها من أواخر العهد الروماني ومعظمها من بناء العرب وفيها معبد أو مصلى من القرون الوسطى من الجهة الشرقية وهي محاطة من الجنوب ومن الغرب بهوة عميقة محفورة في الصخر عمقها من ١٥ إلى ٣٦ متراً ومن الجنوب فقط لتصل القلعة بذروة الجبل ومدخلها إلى الجنوب الشرقي وطولها ١٢٠ متراً وعمقها ٣٠ من طرفها الشمالي بناء ناتئ طوله ٢١ متراً متجهاً إلى الشرق وفناؤها أو صحنها في الجهة الشرقية منها عمقه نحو ١٥ متراً ومثلها الأبنية الخارجية ولها انحدار يختلف من ٦ إلى ٩ أمتار وقد قام على الحائط الجنوبي برجان على شكل نصف دائرة.

قامت القلعة على هذا المثال بحيث أعجزت المهاجمين ويقال أن صلاح الدين لم يستطع أخذها بالمنجنيق إلا بضربها به من قرية القليعة في الشق الآخر من الوادي على مسافة لا تقل عن أربعة كيلومترات وفي رواية تدور على ألسن أهل القرى هناك أنه حاصرها أشهراً ولم يستول على حاميتها إلا بحيلة دبرها قروي من أهل ذاك الجوار فدعا الحامية خارج القلعة لمأدبة أعدها لها وكانت الحامية مستأمنة له وقد أهكها الجوع حتى صارت تأكل الفيران والجرذان فما شعروا وهم مشتغلون ببطونهم إلا وعسكر صلاح الدين قادمون بطعام في زي النساء حتى اقتربوا منهم فباغتوهم فلم ينج منهم نافخ نار.

والصحيح في فتحها ما قاله العماد الكاتب من أن صلاح الدين قد إلى شقيف ارنون من دمشق ماراً بقلعة بانياس وأتى مرج عيون رخيم منه بقرب الشقيف وجمع على من به من آلات الحصار أسباب التخويف وأقام عسكره في ذلك المرج الوسيع والروض الوشيع وكان الشقيف في سد صاحب صيدا ارناط فأمهله ثم أمهله ولم يجد صاحب الحصن منجأ وتحول السلطان من مخيته إلى أعلى الجبل لمحاصرة الحصن ورتب له عدة من الأمراء إلى أن

تسلمه بعد سنة بحكم السلم وكانت مرجعيون تتوافد إليها جموع المتطوعة من دمشق وحوران والمرج والغوطة قال: وفي يوم الأحد خامس عشر ربيع الأول تسلم بالامان شقيف ارنون واستمر الحصار عليه منذ نزولنا في السنة الماضية بمرج عيون وصاحبه ارناط صاحب صيدا في دمشق لأجله معتقل وباب خلاصه دون فتح شقيفه مقفل وذلك أن الشقي فخر زاده وعز اجتهاده ومرد عليه في الحفظ مراده وخانه في البصر ارتياؤه وارتياده ونخب من الرعب فؤاده وأصلد باليأس زناده وامتنع عليه إصداره وإيراده فسلمه على أن يسلم صاحبه وتخلص في النجاة مذاهبه وخرج هو ومن معه وترك الشقيف بما فيه وتركه للإسلام بما يحويه وأفرج عن صاحب صيدا وصار إلى صور ولبس من التشريف والتسريح حبير الحبور.

وبعد صلاح الدين نزلت القلعة الحامية الإسلامية وما زالت تتقلب عليها الأحوال حتى سكنها في القرن الماضي أبناء العشائر أو حكام جبل عامل ولم يغادروها إلا في النصف الأخير من القرن السابق أما اليوم فقد أمست زريبة يأوي إليها الرعاة بغنمهم وماعزهم.

غادرنا عصر اليوم الخامس عشر من سياحتنا إلى مرج عيون أو مرجعيون كما يقال لها اليوم فاجتزنا إليها جسر الخردلة الممتد على نهر الليطاني ومرج عيون كانت مملكة من ممالك إسرائيل تحيط بها حدود رحوب وقادش وخاصور وافيق أي سهل هذا المرج الذي يمتد نحو عشرة كيلو مترات وعلى نحو كيلو مترين من الجديدة مركز مرج عيون اليوم تل دبين وهي ربوة في السهل فيها بعض خرائب تدل على أنه كان هناك مركز عيون وعيون هذه كانت عرضة لهجمات آرام وآشور منها أخذت هذه المقاطعة اسمها وقال بعضهم أن

عيون هي دبين وهي قرية على ميلين شمالي جديدة مرج عيون وعلى تل دبين آثار قديمة ذات شأن وقيل هي الخيام على ميلين إلى الجنوب الشرقي من الجديدة.

واختلفت الأحوال على مرج عيون في الحكومات الإسلامية فكانت من أعمال صفد وسماها أبو الفدا مرج العيون بألف ولام وسماها غيره مرج عيون وهذه التسمية نشأت في الغالب للعيون الكثيرة التي تنبع من أرض الجديدة خصوصاً وهي عجيبة لا تكاد تخلو قطعة من عين تنبض فيها مع أن الجديدة على سطح مستو في رأس جبل لا اتصال بينها وبين القمم العالية حيث تبقى الثلوج أشهراً كما هو الحال في قمم صنين في لبنان الغربي وقمم حرمون أي لبنان الشرقي وإلى شرق مرج عيون جبل الشيخ وقراه وإلى الجنوب بلاد بشارة بحيرة الحولة وإلى الغرب قرى بلاد الشقيف وإلى الشمال جبل الريحان وتومات نيحة أو شقيف تيرون.

وعلى ميلين من الجهة الثانية عند منفرج الوادي قرية ابل ويقال لها ابل السقي تمييزاً لها عن ابل القمح من أعمال مرج عيون أيضاً وفي منتصف الوادي على نفس السطح الذي قامت عليه قرية ابل قرية الخيام أو الخيم. والجديدة والسقي والخيام ثلاث بلدان كأنها بلد واحد ذات ثلاثة أحياء لا تقل نفوسها عن اثني عشر ألف نسمة والغالب أن ابل السقي كانت بعد الإسلام مقر عمل تلك الكورة بدليل ما قاله ابن خرداذبة: كورة السقي وجرثبة والحولة وقال ومن أخذ من بعلبك إلى طبرية على طريق الدراج فمن بعلبك إلى عين الجر عشرون ميلاً وإلى القرعون وهو منزل في بطن الوادي خمسة عشر ومن قرعون إلى قرية يقال لها العيون تمضي إلى كفر ليلى عشرون ميلاً ومن قرعون إلى طبرية خمسة عشر ميلاً وعد ابن خرداذبة من جملة كور الأردن كورة آبل ولعلها أيضاً هي بعينها اوابل القمح. ويقول ياقوت أن السقي قرية بظاهر دمشق ولم يقل عن مرج

عيون إلا أنها بساحل الشام والغالب أنها لم تكن مشتهرة في عهد وإن كان لها ذكر في الفتح الصلاحي.

ويتبع قضاء مرجعيون اليوم كثير من قرى جبل عامل وعدد قرى قضائها ٥٤ قرية منها المهم جداً بتاريخه وكثرة سكانه كبنت جبيل وهونين ودير ميماس ميس ولا تقل نفوس القضاء عن خمسين ألفاً ورما كان المهاجرون منهم نحو خمسهم كثير منهم الذين وفقوا بين أميركا وأثروا ولا سيما سكان الجديدة مركز القضاء ممن لا تجد بينهم أمياً من الذكور والإناث ولا تشبهها بهذا المعنى بلدة في سورية إلا الناصرة فيما أذكر لأن تنافس الطوائف النصرانية على تأييد نفوذهم ودعوتهم فيها دعا كل منها إلى فتح المدارس وتعميم التعليم مع التعاليم وقد فطر أهل هذه البلدة على التقليد المفيد فإذا علم أحدهم ابنه لا يلبث جاره أن يحذو حذوه وهكذا حتى أصبح أهل القصبة وأكثرهم مسيحيون متعلمين.

أما المسلمين فشأنهم شأنهم في كل مكان مررنا به: يضن الأغنياء منهم بأموالهم حتى على تعليم أولادهم والفقراء اتكلوا على الحكومة وهيهات أن يتعلم ولد يسلمه أبواه لمعلم تعينه المعارف هذا إذا فتحت لها مكاتب في مراكز الأقضية فما هو الحال في سائر القرى التي تمر بالعشرين والثلاثين والأربعين منها ولا تجد فيها مدرسة أميرية ولذلك ترى أبناء المسلمين ينصرف غنيهم على الأغلب إلى الفسق والاعتداء ولا يجد فقيرهم متسعاً له من العيش ليتعلم فيرعى الماشية ويعيش في الجهل المطبق عمره.

دخلت جديدة مرج عيون بالمتعلمين من سكانها في طور المدن ومثلها بعدد السكان كثير في بلاد هذا القطر فهي أصغر من حرستا وعربيل وداريا وجوبر من قرى غوطة دمشق التي لا تكاد تجد فيها مكتباً جيداً في الجملة ولكن أهلها على قلة عددهم أهم من جميع

أهل الغوطة على قرب هؤلاء من دمشق لأن الغوطتين اتكلوا على الحكومة فلم تعلمهم ولن تعلمهم أما أولئك أفضل عليهم اللاتين والروم والبرتستانت فأحيوا نفوسهم بالآداب والمعارف على مناحيهم فأقام من أقام منهم عزيزاً وهاجر من هاجر منهم قادراً متعلماً.

وبينا تجد المسلمين يأكل كبارهم صغارهم على ما سمعته من تلك الدعوى الغريبة بين فقراء المسلمين في قرية الخيام وأعيانهم الذين سلبوهم فيما مضى على ما يقال أراضيهم لينجوهم من الخدمة العسكرية بكتم أسماء نحو ألفين منهم عن الحكومة نجد أغنياء المسيحيين يأخذون بأيدي ضعفائهم فيفضلون على المخاويج ويعلمون الأميين ويواسون من يستحق المواساة من البائسين ولا عجب فالعلم يعمر والجهل يدمر.

في الجديدة تصدر جريدة المرج لصاحبها صديقنا الدكتور أسعد رحال وهي من جرائدنا الأسبوعية الراقية وقد كان أكبر دواعي رواجها من النشيط المهاجرين من أهل المرج ولا سيما سكان الجديدة العقلاء المنورون ولا أعلم في مدن داخلية الشام جريدة أسبوعية تضاهيها بالرواج اللهم إلا إذا كانت جريدة حمص التي تباع أيضاً من المهاجرين الحمصيين بح بخ وزه زه.

وبعد فإن هذا المرج بطبيعته من أجمل ما وقعت عليه العين من البلاد التي عرجنا عليها في رحلتنا يشرح النظر منه ما شاء في روض بهيج لو أكثروا فيه من زرع الأشجار المثمرة لفاق غوطة دمشق وأشبه سهول فرنسا وجبالها خصوصاً وأكثر دور الجديدة وابل والخيام أصبحت تبنى على الأصول الحديثة بالحجر الصلد والقرميد البديع ولكل دار حديقة تحيط بها كالهالة بالقمر وما أرض المرج إلا كما قال الشاعر:

أرض إذا عبس الشتاء رأيته ... كملاءة ملئت من الكافور

وإذا الربيع تكاملت وجناته ... فمدبجات عطرت بعبير

وإذا المصيف تلألأت صفحاته ... ففواكه من يانع ونضير
وإذا الخريف تقلصت أردانه ... فمتاع أقوات من المذخور
جمعت بها شتى المنى فكأنما ... لقيا البشير بوصلة المهجور

وادي التيم

كتب لنا الطواف حول جبل الشيخ في هذه الرحلة ومشاهدة جهاته الأربع. وجبل الشيخ هو جبل حرمون بعينه المذكورة في التوراة وسماها العرب جبل الثلج قال حسان بن ثابت:

من دون بصرى ودونها جبل الثل ... ج عليه السحاب كالقدد

ويسمى أيضاً أمانة وبعل حرمون وسيئون وسؤيون وسنير زشنير وزعم بعض أصحابنا أن السبب في تسميته هو أن شيخاً من زعماء الطائفة الدرزية سكن مغارة في سفحه الغربي في القرن السادس للهجرة وتسمى مغارته الآن مغارة العباد وأقام هناك مع قومه السنين الطوال وبعض الإفرنج يعللون هذه التسمية ببياض الثلج الذي على قمته ويشبه رأس شيخ أشيب. وتسمية العرب لحرمون بجب الثلج تسمية طبيعية لأن علوه يحفظ الثلوج إلى آخر فصل الصيف ولا سيما في المنحدرات العالية التي لا تعبث بها الرياح الحارة والشمس على ما يجب وعلو أعلى قمة فيه ٢٦٧٠ متراً عن سطح البحر أو نحو ٩٤٠٠ قدم وطوله ثلاثون كيلومتراً أو ثلاثة وثمانون ميلاً أو سبع ساعات وهو إلى الجنوب الغربي من دمشق على بعد ٣٠ ميلاً.

ومن الغريب في أمر هذا الجبل أن العيون المنبجسة من ثلوجه تكثر جداً من شرقيه أي من

جهة وادي العجم وإقليم البلان كما تنبجس من جنوبيه أو ما يقرب منها مثل عيون نهر البانياسي والأردن وهو من سفوحه الغربية والشمالية ضنين بالماء جداً ولا سيما من جهات راشيا.

وبعد ذوبان الثلوج في أواخر الربيع يصعد إلى أعلى قممه بعض النظارة للنزهة والصيد وغالب صعودهم إلى قمة اسمها قصر شبيب وفيها إلى اليوم أنقاض بناء ولكن الوصول إليها يحتاج إلى سبع ساعات صعداً سواء كان من حاصبيا أو من راشيا أو من إحدى قرى إقليم البلان فيشهدون منه سورية بأجمعها ويرون بالمناظير والمجاهير دمشق وكيف لا وقمم حرمون أعلى جبال في سورية.

قدس القدماء حرمون وكان من الجبال التي يفزع إليها العباد كما تشهد لذلك المعابد الكثيرة في جواره بل في سفوحه وقممه وكان الإسرائيليون يعجبون بعلوه ويجلونه لأنه يجمع على ظهره وفي صدره الغيوم والسحب وقد ورد في نشيد الأناشيد كلام على الحيوانات الكاسرة التي تسرح فيه وتمرح ولا يزال فيه إلى اليوم جنس من الدب من النوع الذي يسميه الإفرنج وفيه أنواع من الثعالب والذئاب وضروب من الطيور وينبت فيه من النباتات ما ينبت في جبال سورية عامة وتجود فيه الكروم فوق ١٤٤٠ متراً من سطح البحر وبعد هذا العلو يطلع البلوط والملول وعلى علو ١٥٠ متراً من الكروم ينبت نبات الصمغ السراس وعلى علو ١١٥٠ إلى ١٦٥٠ يكون شجر مثمر ولكنه بري وثمره يؤكل وعلى السفح الغربي من الجبل يجود اللوز في مكان يدعى عقبة اللوزة. واللوز صنفان كما أن الخوخ الضخم صنفان وفي الجبل نوع من الكراز والأجاص وتنبت فيه أصناف أخرى من الثمار البرية وهو قاحل لا خضرة فيه إلا من سفحه الجنوبي حيث تنبت بعض النباتات مثل السيكران وغيره وجميع سفوح الجبل صعبة المرتقى غير

مخصبة لقلة التربة فيها وفقدان المياه بعد أيام الربيع ولا يبعد أن السفوح القريبة منه كانتفي القديم مغروسة بالحراج والغابات الغبياء إلى الأمكنة التي يساعد هواؤها على الإنبات.

وفي الأطراف الغربية من جبل الشيخ أي بين جبل الشيخ وجبل البقاع الشرقي أودية وتلول يقال لها وادي التيم نسبة إلى تيم الله بن ثعلبة تغلبه عن وادي الليطاني الأعلى سلسلة تلال تمتد شمالاً إلى عين الجر في البقاع وعلى تلاله قرى عديدة تبلغ خمسة وعشرين

قرية ومنها يتألف قضاء حاصبيا وقضاء راشيا أو التيم الأعلى وقاعدته راشيا كلمة سريانية بمعنى الرؤوس والتيم الأسفل وقاعدته حاصبيا كلمة سريانية ومعناها الجوار وإلى اليوم لا تزال آثار معامل الفخار في حاصبيا. ويحد ادي التيم شرقاًوادي العجم وإقليم البلان وشمالاً سهل البقاع وغرباً مرجعيون وجنوباً بلاد الحولة وغرباً جبل الشيخ.

وليس فيما ظفرنا به من كتب السلف إشارة تشعر بمجد سابق لمدينتي حاصبيا وراشيا قبل الحروب الصليبية والغالب أنهما كانتا حصنين فقط لصد هجمات المهاجمين على المدن الداخلية على نحو ما كانت قلاع تبنين وهونين والشقيف والصبيبة وغيرها وباستيلاء أمراء الشهابيين عليهما كثر الكلام بشأنهما في التواريخ الحديثة ففي سنة ٥٥٧ قام آل شهاب من حوران وكانوا فيها منذ الفتح الإسلامي وأصلهم من الحجاز وزحفوا إلى وادي التيم بزعامة الأمير منقذ وكان نزولهم في بيداء الظهر الأحمر من الكنيسة الجديدة على ساعة ونصف من راشيا الوادي وكانت هذه البلاد تحت استيلاء الإفرنج فردهم آل شهاب واستنقذوها منهم في قصة يطول شرحها وكان المتولي على وادي التيم قبلهم الأمير ظهير الدين كرامة التنوخي صاحب ثغر بيروت فاتت جموع الإفرنج من صيدا

وصور وعكا إلى حاصبيا فردهم الشهابيون على أعقابهم مدحورين وطردوا حاكمها الكونت أورا وبسطوا أحكامهم على هذا الوادي ثم اتصلوا بلبنان وتولوا أمره بعد الأمراء من آل معن واستولى الشهابيون على لبنان نحو قرن ونصف وقد تنصر بعض أفراد من أسرهم ممن حكموا لبنان ولم يزل أعقابهم إلى اليوم مسيحيين أما من بقوا في وادي التيم فظلوا مسلمين ومنهم اليوم طبقة متعلمة تتولى الوظائف في الحكومة ولذلك غلط بيدكر في قوله أن بني شهاب هم من أمراء الدروز ولو كانوا من أمرائهم ما قتلوا في وقائع الشام المشؤومة سنة ١٨٦٠ في راشيا وحاصبيا بيد الثوار من أشقياء حوران ولبنان أيام قتل ٨٠٠ من المسيحين في راشيا و ٩٧٠ من مسيحيي حاصبيا ولو لم ينج بعضهم إلى دار السيدة نائفة شقيقة سعيد بك جنبلاط لهلكوا عن آخرهم وأن معظم من نراهم ساكنين في حارة الميامنة اليوم في حي الميدان بدمشق هم ممن جلوا عن وادي التيم ولا سيما من حاصبيا وراشيا يوم تلك الوقائع المشؤومة ونزلوها وتناسلوا فيها فحسنت حالهم.

أشرنا إلى هذه الوقائع والفظائع إذ لا يسوغ للمؤرخ أن يسكت عن حوادث لها علاقة كبرى بعمران هذه الديار خصوصاً وقد حرقت في تلك الفتنة المشؤومة غابات وادي التيم ولا سيما حاصبيا وراشيا كما أحرقت أشجار جزين وإقليم الخروب من لبنان وجباع من جبل عامل وكان المنكوبون تحصنوا فيها فأشعلت فيها النيران ليهلك من لم يهلك بحد السيف والسنان.

كان وادي التيم من أهم مراكز الدعوة الدرزية ولا يزال إلى اليوم كذلك. وفوق حاصبيا على نصف ساعة منها خلوات البياضة وفيها مجمع هذه الطائفة الديني زرتها فرأيت فيها معبداً في الوسط مفروشاً على نحو ما تفرش الجوامع وبالقرب منه مساكن

وقف البياضة ومنها منك خاص لأربابها يحب أهلها الانقطاع إلى العبادة ومن المنقطعين لهذه الغاية في البياضة أناس من وادي التيم وآخرون من الجبل الأعلى في حلب وجبال صفد وجبال لبنان وجبل حوران كما أن منهم المتزوج ومنهم المجرد وهم على جانب من النسك والتقشف شأن سائر العباد في معظم الأمم على الغالب.

وموقع البياضة جميل يطل على كثير من قرى وادي التيم وترى منه قلعة الشقيف وغيرها من بلاد مرجعيون وجبل عامل والحولة فإذا أوقدت فيها النار شوهدت إلى مكان بعيد.

ونحو نصف مكان وادي التيم دروز يحسنون الزراعة وهم على جانب من الأخلاق يتوفرون على أعمالهم ويحسنون عشرة جيرانهم شأن كل من يتعلم من أبناء هذه الطائفة ولا سيما في لبنان. ومن لنا برجالهم أن يهبوا لتعليم أولادهم كما هب أخوانهم المسيحيون من قبل فاستفادوا وأفادوا فإن في أبنائهم من الصفات الحسنة العربية ما لو توفروا على تنميته وتذكيته بالعلم الصحيح لجاء منهم شعب من أرقى الشعوب العثمانية بشجاعته ومضاءه وحسن أدبه وعزة نفسه وسماحته وذكائه وبعض من هذه الصفات مما يفخر به المفاخرون.

وليس في حاصبيا ما يستحق الذكر سوى معدن الحمر الذي كان السلطان المخلوع يستثمره لنفسه وظهرت منه فوائد مادية لأهل هذه الديار وهو اليوم مهمل لقلة اليد العاملة في هذه الديار لأن الناس هاجروا بالألوف منها فاضطرت الحكومة أن تهمل هذا المعدن كما أهملت معدن سحمر في البقاع أيضاً وغيره من المعادن في سورية لم تفكر في استثمارها وقد أضر إهمال الحمر بأرباب الكروم فتصاعدت أثمانه وهو يستعمل كل سنة لتزبيرها وتأبيرها فلحقته الدودة من أجل ذلك وقلت مداخيله.

وقد سمعت أن من قرى ريشيا قرية اسمها بيت لهيا على ثلاثة أرباع الساعة من ريشيا وكنت قرأت في بعض الكتب أن بيت لهيا من أعمال دمشق تضاف إليها كورة تنسب إليها فإذا صحت روايتي تكون بيت لهيا وادي التيم غير بيت لهيا في غوطة دمشق التي ذكرها ياقوت ورد على من قال أن آزر أبا إبراهيم الخليل عليه السلام كان ينحت بها الأصنام ويدفعها إلى إبراهيم ليبيعها فيأتي بها إلى حجر فيكسرها عليه والحجر كان إلى عهد ياقوت بدمشق معروفاً يقال له درب الحجر قال والصحيح أن الخليل عليه السلام ولد بأرض بابل وبها كان آزر يصنع الأنام وفي التوراة أن آزر مات بحران وكان قد خرج من العراق فأقام بحران إلى أن مات ولم يرد في خبر صحيح أنه دخل الشام وللشعراء في بيت لهيا أشعار كثيرة منها قول أحمد بن منير الاطرابلسي:

سقاها وروى من النيربين ... إلى الغبطتين وحمورية

إلى بيت لهيا إلى برزة ... دلاح مكفكفة الأوعية

والنسبة إليها بتلهي ونسب إليها خلق كثير من أهل الرواية وقال أبو بكر الصنبوري:

أمر بدير مران فاحيا ... واجعل بيت لهوي بيت لهيا

ويبرد غلتي بردى فسقيا ... لأيام على بردى ورعيا

ولي في باب جيرون ظباءٌ ... أعاطيها الهوى طبياً فظبيا

ونعم الدار داريا ففيها ... حلالي العيش حتى صار أريا

سقت دنيا دمشق ليصطفيها ... وليس يريد غير دمشق دنيا

تفيض جداول البلور فيها ... خلال حدائق ينبتن رشيا

مظللة فواكهها بأبهى ال ... مناظر في نواضرها واهيا

فمن تفاحة لم تعد خداً ... ومن رمانة لم تخط ثديا

والظاهر من شعر ابن منير والصنوبري أن بيت لهيا هذه والتي ذكرها الشعراء فأكثروا من ذكرها هي بيا لهيا الغوطة وبيت لهيا وادي التيم ومعنى بيت لهيا بيت الآلهة بالسريانية قال ياقوت بيت لهيا بكسر اللام وسكون الهاء وياء وألف مقصورة كذا يتلفظ به والصحيح بيت الآلهة.

ولم يذكر ياقوت وادي التيم في معجمه بل ذكر يبوس وقال أنها اسم جبل بالشام بوادي التيم من دمشق وإياه عنى عبد الله بن سليم بقوله: لمن الديار بتولع فيبوس.

قلنا وجبل يبوس هو الغالب فيما رواه الزبداني ومنه الآن قرية كفر يبوس وهو المعروف بوادي الحرير ووادي القرن وإلى هنا كان يتصل عمل وادي التيم وكان هذا الوادي في القرن الثامن من معاملة كرك نوح بالبقاع وله إقليم مع ما يضاف إلى الوادي المذكور ثلثمائة وستون قرية تعد من عمل دمشق.

وزراعة وادي التيم ضعيفة وأكثر قراه جميلة على أكمة الأرض وربما كانت نفوسه نحو ٢٥ ألف نسمة فقط أما طرقه فأصعب وأوعر طرق ومياهه قليلة ومتوسطة الجودة بطعمها ونفعها وقد تشح أيام القيظ فيقاسي الأهلون منها شدة وعناء.

هذا وفي اليوم الثالث والعشرين من أيام رحلتنا ركبت ورفيقي دابتين من راشيا فبعد أن اجتزنا سبل عيحا أو مستنقع قرية عيحا دخلنا في وادي بكة وجزناه في ست ساعات إلى التكية إحدى محطات السكة الحديدية بين بيروت ودمشق وبالقرب من هذه المحطة شلال بردى يولدون منه الكهرباء لمدينة الفيحاء ومنها ركبنا القطار عائدين إلى دمشق.

ماذا رأينا في رحلتنا

تحملنا في رحلتنا هذه المشاق المختلفة ما لا نكاد نكابد بعضه لو طفنا قارتي أوربا وأميركا وذلك رجاء أن نعود منها بفائدة نطلع عليها الأمة والحكومة وها قد كتب لنا ذلك بقدر